

عمر طاهر

طريق التوابل

٣٠ حكايه قصيره

طريق التوابل

٢٠ حكاية قصيرة

عمر طاهر

هذا العمل مُهدى إلى زُقية عمر أينما حلت.

ما كانش يخطر في بالي

إني أدخل البلكونة النهارده

ألاقي كل شيء اختفى

حتى الشقة اللي في ضهري لقيتها اختفت

مجرد شخص في بلكونة.

(من كتاب "وضع محرج" ٢٠٠٤)

القسم الأول

التوابل

السجن

اشتركت مع ثلاثة آخرين في جريمة قتل، وحكم علينا بالسجن لأربع سنوات، كنت مندهشًا طوال التحقيق من أنني تورطت في جريمة ما، ولكن عند إعادة تمثيلها أمام النيابة وجدتني أنا تحديدًا الذي قمت بقتل الرجل بأن كممته لمنعه من الاستغاثة.

تقبلت السجن بصدر رحب واعتبرته فرصة للاستجمام ولقضاء أيام هادئة بلا تشويش، قمت بتجهيز حقائبي، وكان ما يهمني أن أجمع أكبر قدر ممكن من الكتب والأدوية.

كانت سيارة الترحيلات في طريقها إلى السجن تمر بأحد الأسواق عقب صلاة الفجر، في السوق كنت أتابع باعة جائلين يبيعون فواكه اللحوم، ويقومون برصّها وهم يروجون لها بأغنيات فاحشة.

كنت شغوفًا بالتجربة ومندهشًا من أولئك الذين يخشون السجن..

في اليوم الأول صحوت واتجهت إلى ساحة صغيرة موجودة داخل مبنى كبير مليء بعشرات المساجين الواقفين يشخنون إلى جوار شباك مغلق.

اشتريت من الحارس علبة سجائر، ثم اتجهت ناحية الشباك، وأشعلت سيجارة، ثم فتحته ليدخل بعض الهواء النقي، ارتعب الحراس وهرعوا باتجاهي قائلين: إن فتح الشباك ممنوع، هنا انقبض قلبي بشدة، وشعرت أن السنوات الأربع القادمة ستكون مليئة بالاكتئاب.

الحصان

ثمة كراهية مقيمة بينه وبين شقيقه بدأت عند توزيع الميراث، اتفقا على كل شيء إلا حصانًا كان الأب يجوب به شوارع البلد عصرًا، لم يكن هناك مجال لاقتسامه، وكانت هناك فرصة متاحة لأن يحتفظا به سويًا إلا أن الأخ الأكبر أصرّ على أن يستأثر به، فهو مغرم بخيلاء الفارس، الحصان أيضًا كان يرتاح للأخ الأكبر، ويمتعض كثيرًا إذا ما اقترب منه شخص آخر، فكانت الجفوة.

كل يوم كان يمتطي حصانه ويمر بشقيقه دون أن يتبادلا تحية، إلى أن مرض فلزم الأصغر فراش شقيقه يستحلفه بالله ألا يموت، كان الأصغر يرى في الجفوة رحمًا موصولا بالحضور أيًا كانت هيئته، صارح شقيقه

المريض بأن وجوده كافٍ، أما الخصام فهو دليل على أن هناك شيئًا ما يجمعهما، تبادلا الأحضان، وكان الصغير صادقًا حتى إنه مات في حضن شقيقه الأكبر.

أقسم الأكبر من يومها ألا يركب أي حصان حتى يموت.

سيجارة

كان الضابط المسئول عن العملية يوجه السؤال للضحية بشكل روتيني عما إذا كان له طلب أخير، لم يحدث أن طلب أحد شيئًا من قبل، هو يفهم ذلك، الشخص الذي يعرف أنه سيموت بعد ثوانٍ.. مات بالفعل، ربما قطع عدة كيلو مترات على الطريق لكن جسده لا يزال موجودًا بحاجة لمن يرسله خلفه.

هذه المرة طلب صاحب البذلة الحمراء سيجارة.

كان يتابعه وهو يدخنها، بينما الحبل حول رقبته مرخي، تذكر الضابط أنه كان يطلب سيجارة دائمًا في اللحظات المهمة، لم يكن مدخنًا بطبعه، لكنها كانت تزيل بعضًا من توتره وتمنحه قليلاً من التركيز تحتاجه الخطوة القادمة.

تأمل صاحب البدلة الحمراء، ثم فكر الضابط أنها المرة الأولى التي يرى فيها شخصًا يأخذ الموت بهذه الجدية.

حليم

ظللت طوال الليل أحاول إقناع عبد الحليم أن يشتري هذا اللحن من بليغ، لكن حليم كان يراه لحنًا حزينًا أكثر مما ينبغي.

في بار شبرد كان بليغ يقسم لي أن هذه هي مشكلته مع حليم، فاللحن فرح جدًا، صمت ثم قال: ربما كانت الكلمات نفسها بها قدر من الحزن.

كان لا بد من التدخل، طلبت من الشاعر أن يتصرف لإضفاء بهجة ما على الأغنية ففعل.

كنت سعيدًا وبليغ وحليم يجلسان في الشرفة يتدربان على الأغنية بعد تعديلها وكلهما انسجام، بينما الشاعر يميل عليّ طالبًا مني إن حكيت القصة يومًا ألا أذكر اسمه.

الفناء

دخلت إلى بيت جدي القديم الذي كنت أحبه وضاع من العائلة في ظروف غامضة حيث بيع لرجل طيب متصوف يحب آل البيت ومشايخ الصعيد، ويحرص على حضور الليلة الكبيرة في معظم الموالد.

دخلت حجرة نوم جدتي فوجدت جسدين لشخصين أحبهما، وكان رحيلهما على التتابع صدمة قوية خالي وخالتي.

مررت بجسديهما وأنا أحاول أن أحافظ على ثباتي في طريقي إلى شباك الغرفة الذي يطل على فناء واسع.

كان المشهد في الفناء مبهجًا للغاية، ثمة أطفال يلعبون وبعض الراهبات بزيهن المميز يبتسمن وهن يتجولن في المكان، كانت الشمس مشرقة، وكان الطقس صحوًا أشبه باللحظات التي تسبق طابور المدرسة.

التفتُ فوجدت أمي تحاول أن تعدل من وضع خالتي، اصطدمت يد أمي بوجهها دون قصد، فصدرت عن خالتي كحة ضعيفة ثم فتحت عينيها واعتدلت في جلستها وقالت لأمي: "أنا ما موتش"، كررتها ثم خرجت من الغرفة.

خرجت خلفها إلى صالة المنزل، فوجدت معظم أفراد العائلة يملئون المكان، وكان باديًا عليهم أنهم يحتفلون بالحدث، بينما لا أثر لخالتي في المكان كله.

الرائحة

كان عالمه السحري في الطفولة هو مطبخ الجدة، كانت رائحة المطبخ هي كلمة السر التي يدلف من خلالها إلى تلك البهجة، كان يقوم من فراشه ليلًا ويتسلل إلى المطبخ والبيت كله نائم ليستنشق ما تيسر من السعادة والطمأنينة، ثم يعود إلى فراشه فوق حصان بأجنحة.

بمرور الوقت كان يفك شفرة تلك الرائحة.

في السادسة عرف أن جزءًا منها هو رائحة الخميرة المستخدمة لخبز العيش صباحًا.

في السابعة ميز رائحة السمن البلدي وقد فتنه الحر.

في الثامنة اكتشف رائحة النعناع المجفف.

في التاسعة .. خليط خزين الشاي والسكر.

في العاشرة كان يميز رائحة دماسة الفول وهي ترقد فوق نار هادئة طول الليل.

في الحادية عشرة كان خليط رائحة السبرتو والبن المحوج فوق صينية إعداد القهوة.

في الثانية عشرة ماتت الجدة.. لكن البيت لا زال عامرًا بالأهل والسكان.

هو لا يزال يتسلل إلى المطبخ من يومها كلما زار المنزل، وفي كل مرة يجد كل شيء في مكانه بالضبط، ولكن لا رائحة.

مباراة

كانت المباراة مملة وبدون جمهور، لكنها كانت مباراته الأولى مع فريقه الجديد.

لم يصدق أن المدرب طلب منه الاستعداد للمشاركة في آخر عشر دقائق.

هو من بلد بعيد، والمدرجات الخالية ضاعفت غربته، وفي أول لمسة له أحرز هدفًا جميلاً، لكن أحدًا لم يهتم.

نـــور

دخلت إلى الحمام فرأيت مصدرين للإضاءة؛ الأول: عبارة عن بطيخة كبيرة لكنها لسبب ما سقطت فتهشمت على أرضية الحمام، والثاني: عبارة عن لمبة بـ (فيشة)، حاولت أن أشغلها ولكن السلك كان قصيرًا للغاية بحيث إنني فشلت في المهمة.

شعرت بالضعف والحيرة وقلت: يا رب متسائلاً عما يمكنني أن أفعله في هذا الظلام الموحش.

بيوت الأعيان

أوجدتني صدفة ما في بيت قديم واسع، تصميمه يشبه تصميم البيوت الكبيرة التي يسكنها الأعيان في الريف.

تأملت الشبابيك الطويلة الواسعة وأنا في حالة مزاجية جيدة جدًّا.

حاولت الخروج من البيت والذهاب لشراء بعض الطعام، عند باب البيت وجدت امرأة طيبة تقف مبتسمة.

كان البيت يطل على نهر هادر ماؤه رائق ويجري سريعًا، وفي الوقت نفسه كانت الأمطار تهطل بشدة.

تراجعت عن المشوار ووقفت عند الباب أتأمل المشهد.

كان بداخلي يقين أن هذا البيت لم يكن يطل على أية أنهار من قبل.

طريق التوابل

كان طوال الطريق يتسلى بتكوين كلمات مفيدة من أرقام السيارات التي تمر إلى جواره، (ن ص ر)، (ف ر ح)، (ع د س)، (ي ا)، كانت اللعبة مسلية ولم يكن يشوش المتعة سوى السيارات التي تحمل حروفًا لا معنى لها.

فكر أن غياب المعنى لم يكن يومًا مسئولية الحروف، بل مسئولية الصانع، هل اجتهد على الأقل أن يخمن معنى لكلمة تبدو غير مألوفة؟

كانت السيارة التي يقودها رجل عجوز شارد تحمل حروف (أ ب ض).

لو اجتهد قليلاً لوجد معنى ..

فليكن ..

(أ ب ض)، هـو اسـم حيـوان قـديم مـن فصـيلة الزواحف، حمته قدرته على الاختباء من مصير الديناصورات عندما ارتطم بالأرض نيزك كبير أهلك كل من عليها، هو يختبئ عندما يقع كل الشعر الذي يغذي جسده فيشعر بالحرج، يتغذى على نوع ثابت من الحشائش، ويظل طوال العام يخزن كميات منه استعدادًا للحظة الاختباء، في إحدى المرات خرج من العزلة فاكتشف انقراض هذا النوع لم يمت جوعًا لكنه ظل مسكونًا بحنين قاتل لطعم مات.

هو كائن وحيد من نوعه، لا يلد، ولا يبيض، ولم يحدث يومًا ما ما يشبهه، نسخة فريدة، أهلكت قلبه الحوادث، ثم تضخمت روحه كأنها منطاد من كثرة ما ونس نفسه بنفسه، الرحالة يقولون إنه يعيش الآن في الهند فوق أحد الجبال المطلة على طريق التوابل، وحيدًا كعادته، أقلع عن الاختباء لكنه يعاني من نحول شديد من فرط الذهول، يتغذى على الطحالب، وينتظر بفارغ الصبر نهاية الكون.

شعر أن قصته حزينة للغاية، وأنه فرض على الحروف صياغة مأساة ما قد لا يستحقها هذا الكائن، وظل يفكر في حل.

مرت السيارات واحدة تلو الأخرى وهو يترقب المعجزة.. (ش ج ن)، (ه ل ع)، (ز م ن)..

إلى أن مرت (أ ب ض) أخرى، وكان يقودها هذه المرة بطريق يشخن بشراهة.

سيارة أمريكاني

لدي سيارة مستعملة من طراز أمريكي قديم يتسم بالحجم الكبير، أمام المنزل تقف السيارة وغطاؤها الأمامي مفتوح، أفتش عن فتحة الرادياتير لأزودها بالماء.

وصل في اللحظة نفسها الميكانيكي ومعه البواب، تابعت الأول وهو يفحص الموتور ويتأمل سلكًا مقطوعًا أو متآكلاً، سألت الميكانيكي من الذي استدعاه؟ إذ إنني لم أفعل، فقال: البواب..

كان البواب يقف بعيدًا يتشاجر بصوت عالٍ مع أحد السكان.

قال لي الميكانيكي همسًا: إن البواب كان يقود سيارتي ويبدو أنها (سخنت منه)، وأخذ يحذرني منه ويوصيني بعدم الإفراط في الإحسان إليه، وألا أترك له مفاتيح سيارتي مرة أخرى.

عندما عاد إلينا البواب عنفته على أنه استخدم السيارة دون استئذان، ففوجئت به يضع يده على كتفي بحميمية مقتطة لأهدأ، طلبت منه ألا يلمسني، وضع يده هذه المرة على أنفي فأزحتها بقوة وهددته بالقتل إن كررها، فاستجاب هذه المرة وانصرف وهو يتبادل السباب مع الميكانيكي.

بينما يبتعد عني كنت أفكر في ضرورة الاتفاق مع سكان العمارة على الاستغناء عن خدمات البواب، لكنني لسبب غامض كنت موقنًا من أنهم سيرفضون الفكرة.

الطفل

عندما استيقظت وجدت في الشقة طفلًا لا أعرفه لا يتجاوز العامين، كان باب الشقة مفتوحًا بما يعني أنه تسلل إلى هنا قادمًا من بيت أحد الجيران.

علاقتي بجيراني ضعيفة للغاية وليس هناك فرصة لأن أطرق أبوابهم سائلاً كل بيت على حدة إن كان هذا طفلهم أو لا، لم أعمل حسابًا لهذه اللحظة، قلت لنفسي: سيظهر في الدقائق القادمة من يبحث عن هذا الطفل، ستكتشف أمه غيابه، وستخرج إلى بسطة السلم مذعورة تنادي على طفلها، ترى ما اسمه؟

كان الطفل بشوشًا مما أدخل على قلبي قدرًا من الثبات، فكرت أن أضيفه ولكن ما الذي يمكنه أن يناسب هذه البراءة في بيت قوامه الدخان والكافيين وبواقي الطعام الجاهز؟!

حاولت أن أرفع الطفل فوق الأريكة إلا أنه استعصى فأحطته بكل الوسائد الممكنة، ثم استدعيت البواب بالتليفون.

أكد البواب أن الطابق الذي أقيم فيه لا يوجد فيه أطفال، قلت له: ربما طفل أحد الزوار؟ قال: إنه لم يلحظ دخول شخص غريب يحمل طفلًا إلى العمارة اليوم، قال لي البواب: "مش يمكن ابن حضرتك؟".

جلسنا أنا والطفل سويًا ننتظر طويلًا، أسميته "ماجد"، وأطعمته لبن الأطفال الذي اشتريته من الصيدلية بما تبقى من أموال معي، ثم اتصلت بمن يدينون لي ببعض المال، فوفى الكثيرون بما يكفي لأن أقدم له في مدرسة لا بأس بها، كان مستوى تحصيله متوسطًا، وكنت أخاف عليه كثيرًا فأحضرت له المدرسين حتى باب البيت، الأمر الذي جعلني أضاعف ساعات عملي، فحصلت على ترقية كبيرة، إلا أنني اضطررت لاستبدال جزء من معاشي لأجري له عملية جراحية خطيرة نتيجة حادث تعرض له وهو في طريقه إلى المنزل في آخر يوم من الامتحانات.. رقد بعدها لفترة طويلة أعاقته عن حضور التيرم الأول في الهندسة، إلا أنه سرعان ما استرد عافيته وتفوقه، إلا أنه

انتكس من جديد عندما تعرف بعد عامين على فتاة قاسية وقع في غرامها فأذاقته حريق القلب، أخذته إلى شيخ أعرفه ليخرجه من المأساة، إلا أن الفكرة أتت بنتيجة عكسية فكرة الدين، قررت أن أصحبه معي في رحلة عمرة طالبًا منه أن يؤدي واحدة لروح والدته، كنت قد اخترعت له قصة بخصوص أمه كما تخيلتها ووصيتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة على طريق الإسكندرية الصحراوي بأن يعتمر ماجد نيابة عنها عندما يكبر، عاد من هناك رائق الذهن، فوقع في غرام فتاة طيبة، طلب أن يخطبها فطلبته أن يتمهل قدر الإمكان، وأن يستمتع بالحب، وهو ما حدث، فأشرقت روحه من جديد، وبعد أن أنهى تعليمه الجامعي كانت المكافأة أن سافرنا سويًا في إجازة إلى باريس، وهناك أخبرته بالقصة الحقيقية، فاحتضنني وبكى، وقال إنه لا يعرف غيري، وأنا قلت له: هكذا كان شعوري أيضًا منذ التقينا أول مرة في صالة بيتي.

زيارة

دخلت لأنام في فراشي وقد غطيت رأسي باللحاف الثقيل تاركًا فجوة أرى من خلالها غرفتي وهي تغرق في ظلام يشقه نور خفيف قادم من الصالة، رأيت امرأة جميلة قلت لها: لقد ماتت خالتي، قالت: أعرف.. وعندما دققت النظر وجدتها خالتي نفسها.

فرحت وسألتها عن أخبارها فقالت بهدوء: "الحمد لله"، سألتها إن كانت تشعر بالراحة الآن، فقالت لي: "يعني.. أحسن"، بكيت بشدة وشعرت بدموعي تبلل الغطاء، قلت لها: إنني في غاية الحزن على رحيلها، فابتسمت، ثم استأذنت لتنام في الغرفة الأخرى.

رن جرس الباب فقمت وأنا أشعر بصعوبة في الرؤية من فرط ما بكيت، نظرت من العين السحرية فرأيت صديقي المطرب الشاب، تسللت إلى المطبخ

وفتشت في الثلاجة عن شيء أغير به طعم فمي قبل أن أفتح فوجدت قطعة كبيرة من تورتة الفراولة التي تشتهر بها خالتي، فتحت وأخذت صديقي بالأحضان قائلاً له: إن زيارتي عمل لا يقوم به إلا أشخاص يتحلون بالاحترام والعظمة.

دخلنا غرفتي، ثم استأذنت لأتأكد أن خالتي قد أحكمت إغلاق باب الغرفة الأخرى حتى لا يوقظها صوت غنائنا.

الساعة

تقف أمام الساعة شاردة في محاولة لفهم الوقت.

تعودت أن يشير أبوها باتجاه ساعة يده قائلا:

- هيا، لقد تأخرنا.

كل ما تعرفه عن التأخير هو أنه سبب للإسراع باتجاه باب ما، باب البيت أو باب السيارة أو باب المطعم.

لكن أين يكمن التأخير في ساعة الأب الموجودة على منضدة إلى جوار الفراش؟

كانت شديدة التعلق بأبيها، وعندما قال لها إنه سيسافر لعدة أيام، شعرت الطفلة بامتعاض ما، وكانت حريصة أن تتأكد من إصطحابه لساعة يده معه.

عيد الميلاد

فتاة رقيقة ترتدي ملابس رياضية بيضاء اللون وتقود دراجة ملونة مبهجة، تركت دراجتها في حيازتي واختفت، فكرت كثيرًا في الهروب بالدراجة، لكنَّ شيئًا قويًا بداخلي منعني، أرهقني الصراع بين رغبتي في سرقة الدراجة وتأنيب ضميري على شيء لم أفعله، قررت أخيرًا أن أترك الدراجة في مكانها وأنصرف.

بعد عدة خطوات وجدت أمي في محل للمشويات ترحب بضيوف لا أعرفهم، كان هناك حارس ضخم أسمر يبتسم لي، اقتربت منه بحذر، صافحته فقال لي: إن والدتي تحتفل بعيد ميلادي، فقلت له: إن اليوم لا يوافق تاريخ ميلادي، فقال: لا تصدق التواريخ.

فكرت فيما قاله بينما أتابع أمي وهي تودع ضيوفها عند باب آخر للمحل، وكان بينهم الفتاة صاحبة الدراجة.

نــدم

في منزل العائلة زحام ما، بين الزحام فتاة يعرفها ويشتهيها، طلب منها أن يتوجها سويًا إلى أحد الأركان ذات الضوء الخافت، وطلب منها ألا تحدث ضجيجًا بكعب الحذاء العالي حتى لا توقظ أهله.

تستجيب لطلبه في الخطوات الأولى لكنها تفقد السيطرة على صوت طرف كعبها المعدني أثناء سيرها فوق أرض خشبية، انزعج بشدة من هذا الاستهتار، فحملها بعنف وفتح باب الشقة ليطردها، كانت هي تشعر بالإهانة فتشبثت به بقوة، لكنه نجح أخيرًا في التخلص منها، ثم شعر فجأة بضيق عارم عندما اكتشف أنه أثناء تخلصه منها اضطر أن يهبط معها عدة درجات من السلم.

من البلكونة

خرج رجل المغسلة وأغلق الباب الزجاجي بالمفتاح، ثم دلف إلى محل الورد الملاصق للمغسلة.

بعد قليل خرج يحمل باقة تبدو رقيقة من أعلى معظمها من الورد الأصفر.

وقف على الرصيف لعدة دقائق نظر خلالها إلى ساعة يده أكثر من خمس مرات.

بعد قليل توقفت أمامه سيارة دون أن يهبط من يقودها، مد رجل المغسلة يده بالباقة إلى داخل السيارة، وتبادل مع قائدها بضع كلمات وهو نصف منحنٍ، في نهايتها اعتدل ثم ابتسم بشدة، تراجع نصف خطوة ورفع يده ملوّحًا عائدًا إلى المحل بينما السيارة تهم بمغادرة المكان.

بعد ثانيتين خرج مرة أخرى مسرعًا وكأنه تذكر شيئًا مهمًا.. شبّ على أصابع قدميه وألقى نظرة في الجانب السيارة.

وحدي من البلكونة كنت أرى السيارة تبتعد مسرعة.

صلاة الجماعة

جمعت كل بنات العائلة ودخلت وهن خلفي إلى أحد المساجد لأصلي بهن إمامًا، وقفت أختي الصغرى بالقرب مني، هي الأقرب بشكل يمنحني قدرًا من السعادة.

في أحد الأركان لمحت شخصًا أغلب الظن أنه (دي جيه) أمامه سماعات كبيرة ينبعث منها صوت أحمد عدوية في أغنية لا أعرفها، طلبت منه أن يغلق الصوت لأننا سنصلي، تجاهل هذا الشخص طلبي فأخبرته أنني سأحطم هذه السماعات إذا لم يغلق الصوت.. ففعل وهو متضرر.

رأيته وأنا أصلي يقترب مني على مهل، وأثناء السجود شعرت بيده وهو يحاول أن يسرق شيئًا ما من جيبي عقابًا على تهديدي له، أمسكت بأحد أصابعه لأكسره بينما أنا مستمر في الصلاة، ولكن أصبعه كان مرنًا للغاية وغير قابل للكسر، كان الرجل نحيلاً لكن

كان من الصعب السيطرة عليه، ظللنا على هذا الوضع كثيرًا حتى أيقنت أن قوتنا متكافئة، وأن أحدًا لن ينتصر على الآخر، أرهقني الصراع فخرجت من الصلاة فتكسر أصبعه في يدي.

الشاعر

دخلت إلى مكتب الرئيس السادات أفتش بين أوراقه عن شيء يدينه، كنت أفعل ذلك بمساعدة مدير مكتبه الواقع في علاقة آثمة بمطربة شعبية، كان مدير المكتب متوترًا ويطالبني كل دقيقة بسرعة إنهاء مهمتي.

قبل أن أنصرف يائسًا من فشل المهمة وجدت بين أوراق السادات وثيقة عبارة عن خطة لاغتيال صلاح جاهين، لم أتمكن من فحصها بدقة، لكنها كانت تضم سيرة ذاتية مفصلة لجاهين وملفًا به أشعاره الممنوعة من النشر، وقائمة بأسماء بعض الشخصيات عرفت فيما بعد أنها شخصيات كاريكاتورية من اختراع الشاعر.

هرعت إلى العنوان الذي وجدته بين الأوراق لألفت انتباه الشاعر تجاه ما يحاك ضده، كانت الشوارع مزدحمة، وكنت أصارع الوقت قبل أن أصل فأجده

مقتولا أو معلقا بحبل في السقف بما يعطي انطباعا للعالم أنه قد انتحر، كنت أفكر طوال الطريق ولم أصل إلى إجابة مقنعة ..هل الانتحار عمل جبان أم أنه الشجاعة بعينها؟!

طرقت الباب ففتح جاهين، اندهش من وجودي، مرت من خلفه امرأة كان باديًا أنها تتنصت على حوارنا وكنت أعرف أنها ليست زوجته، ارتبك ولمحت في عينيه حزنًا ما، أخبرته بالمخطط، شكرني ثم طلب مني ألا يعرف أحد أنني رأيته هنا.

قبل أن أنصرف سألني إن كنت أعتقد أن السادات جاد في مخططه، فقلت له: في كل الأحوال عليك أن تقطع علاقتك بهذه المرأة.

القسم الثاني

طريق

شكر

"تعال سلِّم على سيدك"

قالها الأب فاقترب الطفل من جده العائد لتوِّه من المستشفى والمستلقي في فراشه منهكًا، ثم قبَّل يده فقبَّل الجد جبهته.

دخل العم وعلى جلبابه آثار التراب قائلًا: "كله تمام"، يعرف الطفل أنهم قد بتروا قدم الجد في المستشفى، وإن العم ذهب إلى مدفن العائلة ليدفن القدم المبتورة.

قال الجد: هانت .. المدفن لا يُفتح فقط من أجل مجرد قدم تافهة.

راجعوه فيما قاله فأنكر عليهم حزنهم قائلًا: يعني هفضل عايش على طول.. طب ده حتى يبقى وجع قلب، ابتسموا بمرارة فقال: لا بُدَّ للنقطة أن تعود إلى البحر.

قال الأب مشيرًا ناحية الطفل: كان عايز يروح معاهم المدفن وحوشناه بالعافية.

سأله الجد عن السبب، فقال الطفل: علشان أقرا الفاتحة لرجلك.

ضحك الجد حتى دمعت عيناه، ثم قال له حفيده: أمي دايمًا تقول: جدك رجل جوه ورجل بره، أنا النهارده فهمت!!

هاج الأب ونزع الحفيد من أحضان الجد بقسوة وعنّفه على كلامه، فغضب الجد إلا أنه لم يستطع أن يمنع الابن من اصطحاب الحفيد إلى الدور السفلي للمنزل.

حكى لأمه ما حدث فلطمت على وجهها، سألها لماذا بتروا قدم جده؟ فقالت له: السُّكَّر.

كل رجال وشباب العائلة مصابون بهذا المرض، يعرف أنه سيزوره يومًا هكذا أفهمته أمه وهي تقنعه بالإقلال من شراء الحلوى عمال على بطال، سألها إن كان السكر (بيوجع) قالت له: سيوجعك عندما تصبح في سن سيدك.

تخيل نفسه شيخًا كبيرًا بقدم مبتورة، وقارن بين تلك المأساة وبين حبه للحلويات والطعام عمومًا، فقرر ألا يتخلى عن حبه لكنه لن يفوت منذ هذه اللحظة فرصة للجري أو لعب الكرة، سيلعب حتى يشبع بحيث لا يورثه بتر قدمه.

نام واستيقظ على صوت الجد عاليًا يصيح في الجميع: "ما حدش له دعوة"، صعد درجات السلم حتى غرفة جده، ففهم أن الجد طلب منهم أن يحضروا له رغيفًا شمسيًا وبعض العجوة المحمرة في السمن البلدي، حاولوا أن يثنوه عن رغبته لكنهم فشلوا بجدارة، أحضروا له ما يريد، فجلس يأكل بشهية واسعة، لمح حفيده يجلس في أحد أركان الغرفة فشاور له ليجلس إلى جواره على السرير، جلس الطفل فصنع الجد لقمة كبيرة مليئة بالعجوة الساخنة وقدمها للطفل وهو يهمس له في أذنه: "كل .. كل كويس قبل ما يقطعوا لك رجلك"، غمز الجد بعينه للطفل فابتسم، بتقول له أيه يا حاج؟ سأل الابن فقال الجد: ما حدش له دعوة، سيبك بيقولك أيه؟ سأل العم، فقال الطفل: ده سر.

احتضن الطفل سر جده وفرح به عندما وجده يتوافق مع ما توصل إليه بمفرده من قرارات.

في صباح اليوم التالي استيقظ على الصراخ قادمًا من غرفة جده العلوية.

كان يقف في ساحة المنزل بينما رجال العائلة ينزلون بالنعش على السلم، وما أن استقروا على آخر درجة حتى تسلل هو باتجاه الغرفة العلوية.

كان النعش يخرج من باب الدار والرجال يشيرون للنساء بغضب لمنع الصراخ، فغطى الصمت لثوانٍ على المشهد، في تلك اللحظة كان الطفل يصعد السلم وهو يغني بصوت عالٍ: "الله عليك يا سيدي".

لسنوات طويلة ظل الأب يحكي هذه الواقعة للجميع، ثم يتوقف في منتصف الحكاية ليقسم: عَلَيَّ الطلاق سمعت أبويا بيضحك جوه النعش. يكذبونه فيغلظ القسم: كان أبي يضحك طول الطريق حتى توقفنا بالنعش أمام المدفن.

القوامون

دخل على شيخه ثم جلس إلى جواره بعد السلام صامتًا.

كانت ملامح وجهه تضج بكلام كثير غير مريح، عرف الشيخ سبب عدم الراحة عندما لاحظ أنه يحرك خاتم الزواج في أصبعه صعودًا وهبوطًا.

لم يسأله: "مالك؟" علمه شيخه درس الصبر من قبل، قال له: يشكو الواحد كثيرًا ويختتم شكواه بأن يقول: "بس الحمد لله أدينا صابرين"، قال له: هذا سوء أدب مع الله، هذا ليس صبرًا، الصبر يا ولدي أن تكتم الشكوى.

هو يكتم الشكوى بالفعل بعد أن تعلم من الدرس السابق ولمس الفرق بنفسه، كتم الشكوى يجعلك تصادق المحنة، ويجعل للصبر فعلاً مذاقًا طيبًا في الروح، بعد سنوات كان الصبر مجرد شعار يخرج لا إراديًا حدوده طرف اللسان ولا يغير شيئًا أبدًا، الآن صار الصبر مفتاح الفرج الذي لا يتخيله أحد.

فهم الشيخ ما يدور في باله من شكوى معلقة، فقال له: {الرجال قوامون على النساء}، هل فكرت يومًا في المعنى الحقيقي للجملة؟

وتعطي الرجال درجة أعلى.

قال له: الجملة واضحة وتعطي الرجال درجة أعلى.

قال الشيخ: أما الدرجة الأعلى فهي موجودة، ولكن ليس هذا هو المعنى المباشر، للرجل درجة على المرأة، بل خلقه بيديه، ثم خلق منه المرأة، فالرجل بالأصالة والمرأة بالتبعية {وللرجال عليهن درجة}، ولذلك سميت النساء من النساء، وهو التأخر لتأخر خلقهن عن الرجال.

صمت شيخه ثم قال له: سبحان الله .. هذا التتابع في الخلق هو سر حركة الكون، فعندما ظهرت المرأة بصورة تشبه صورته حن إليها حنين الشيء لنفسه وحنت إليه حنين الشيء إلى وطنه.

هز رأسه مستمتعا بهذه النفحة لكن بقي السؤال بدون اجابة {الرجال قوامون على النساء}.

قال شيخه: (قوامون) من اسم الله (القيوم) أي القائم على خدمة البشر والوفاء باحتياجاتهم، هذا حق العالمين على (رب العالمين)، منحك الله شرف أن تكون قواما على النساء، لا يعني أنك أفضل منهن، ولكن هذا يعني أنك القائم على خدمتها، الحقيقة أنك ربما تكون (السيد) لكنك لست سيدا مجانا، أنت السيد من باب خادم القوم سيدهم،

لكن الأصل أنك (الراعي) المسئول عن رعيتك، شديد التحمل لهم ودائم الصبر عليهم، الممسك بيدهم لتعبر بهم الطريق، أنت خادم لزوجتك يا ولدي.. فهمت؟

تململ قليلاً وكاد أن يفتح باب الشكوى غير مبالٍ بنصائح شيخه القديمة.

قال له شيخه: أفهمك يا ولدي .. كانت آخر كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم أن أوصانا خيرًا بالنساء، هو يعرف أن ثمة إرهاقًا في عشرتهن وثمة غلظة في قلوب الرجال؛ لذلك كانت الوصية، في التزامك بها سعادتك وفي تمردك عليها شقاء لا علاج له، تذكر أن سيدنا آدم كان يمرح في الجنة ثم اكتشف فجأة أن لا طعم لها، فخلق الله له حواء ليأنس، أي أن الجنة نفسها لم يكن لها طعم بدون حواء.

تنهد ثم نظر إلى وجه شيخه وهو مقتنع بكلامه، لكنه لم يعرف كيف يترجمه إلى أفعال، فسأله يعني أعمل أيه؟

ابتسم الشيخ له قائلاً: الصبر.

المرح

ظهر في شارعنا منذ شهور جرو صغير حديث الولادة، كنت أتابعه وهو يحاول أن يتعلم النباح مثل بقية بني جنسه فيخرج صوته مبحوحًا متقطعًا بشكل يثير ضحك كل من يتخذ من شارعنا مستقرًا له (السايس .. البواب .. صاحب الكشك .. عامل المقهى)، يغيب الجرو الصغير ثم يظهر فجأة بـ "هليلة" في الشارع جعلت الجميع يقعون في غرامه ويسألون عنه إن اختفى.

مجرد كلب صغير، لكن أهم ما يميزه هو حبه للحياة، لا أبالغ إن قلت إنه جرو بشوش مرح، يسير إلى جوار البنات صامتًا رافعًا رأسه الصغيرة باتجاههم، أراقبهن وهن يتحاشينه ويسرعن الخطى، ثم سرعان ما يسبقهن الجرو بخطوة، ثم يتشقلب أمامهن على أسفلت الشارع فيثير ضحكهن وتعاطفهن فيسمحن له بأن يكون في الصحبة حتى نهاية الشارع، يعرف حدود الشارع جيدًا فلم يحدث أن خرج منها، يستقبل المارين الغرباء بنباحه الكوميدي وشقلبته وحبه للحياة حتى يغادروا الحدود بسلام مستأنسين بالتشريفة التي يقدمها لهم.

حاول أهل الشارع كثيرًا أن يطعموه، وضعوا له سلطانية اللبن وعظام الدجاج وكسر الخبز لكنه لم يكن

يقترب أبدًا منهم، إلى أن رأيناه يومًا يخرج من تحت إحدى السيارات حاملًا في فمه بقايا ثمرة خس أخذ ينظفها بلسانه، ثم شرع في التهامها وما أن أنهاها حتى نام على جنبه الأيمن في الظل، وشككت للحظة أنه شرع في التجشؤ الذي يسبق تعسيلة ما بعد الغذاء، اكتشف الكلب الصغير طعامه بحرية تامة، ويبدو أنه قد اختار أن يكون "نباتيًا".

يغيب لساعات طويلة ثم يتصادف أن تمر "فسبا" يشغل صاحبها عبر الفلاشة بصوت عالٍ إحدى الأغنيات الشعبية الصاخبة فيظهر الكلب الصغير من مكان ما ويظل يجري خلف الفسبا بطريقة لا تشبه الكلاب، ولكنها أقرب لقفز الكنغر الراقص، قال لي عامل المقهى إنه سمّيع، وأنه قبل يومين وأثناء تنظيف المقهى فجرًا عقب انصراف الرواد تسلل إلى أحد الأركان مستكينًا، بينما عملية التنظيف تتم برعاية صوت أم كلثوم القادم من الراديو، سألته عن اسم الأغنية فقال العامل: "أنا فاكر؟ اسأله".

كلب صغير محب للحياة أصبح نجم الشارع، اعتبرناه هاربًا من أهله، وكنا نتساءل عن سر اختياره

لهذا الشارع بالذات إلى أن اختفى تمامًا، سألت السايس، فقال: إن مجموعة من الكلاب دخلوا الشارع فجر أحد الأيام وخرج معهم ولم يعد، ظننت أن السايس يمنحني نهاية منطقية ليريحني، لكنني تذكرت أنني في نفس الوقت تقريبًا صحوت فجرًا على أصوات نباح عالية في الشارع يتخللها نباح جروي الصغير المميز، قلت لنفسي إن السايس صادق، وإن هذا النباح كان نقاشًا عائليًا انتهى باصطحاب الابن البار إلى ملاعب العائلة وأنه تحت ضغط ما اضطر للرحيل عن العالم الذي اختار أن يعيش فيه بنفسه وبقوانينه الخاصة جدًا في الطعام والانطلاق وحب البشر والموسيقى.

مر وقت طويل افتقدته خلاله إلى أن رأيته اليوم يخرج من أسفل السيارة ويجري باتجاهي بشوشًا كعادته، لكنه كان يعرج ويرفع بصعوبة عن الأرض ساقه الخلفية المكسورة.

العمارة

عمارة الأشباح، مهجورة منذ الستينيات، لا يقوى أحد على اقتحامها، وكل من سولت له نفسه أن يسكنها كان يواجه نهاية مأساوية، مثل الرجل اليوناني الذي سكن لمدة يومين، ثم اختفى هو وعائلته كلها في حادث مركب صيد، أو الرجل الذي الذي ألقى بنفسه من الدور الأخير بعد ليلة كان صراخه خلالها يشق سكون ساحل البحر الأبيض كله، أو العريس الذي فوجئ بعد ساعة من دخول الشقة مع عروسه ببقع دم تنسال من الجدران وقط كبير يطاردهما إلى أن استيقظا فوجدا أنفسهما فاقدين الوعي في الشارع شبه عرايا، دراما لا تنتهي، جعلت حارس العمارة يسد مداخلها كلها بالطوب والخشب حتى لا يدخلها أحد، تاركًا للأشباح مهمة إدارتها دون تكدير.

كانت السنوات تمر ولا حديث عن العمارة إلا وقد اختلط بحكايات الرعب، لدرجة أن كل من يمر في الشارع الذي توجد به العمارة كان يلتزم الأدب والهدوء ويسرع الخطا ويتحاشى حتى النظر إليها حتى لا يصيبه من أذى سكانها شيء، كان هناك حفنة من البشر تولوا المسألة من جهة أخرى، كانوا حراسًا متقفين للأسطورة، يدعمون بقاء الأشباح في سلام منعًا لأذى

أكبر، منهم من كان يروج لفكرة أن أساسات العمارة تم صبها فوق مصحف وقع من يد أحد العمال فصارت ملعونة، ومنهم من يقول: إن العمارة أنشئت بشراكة بين مصري ومغربي، وعندما نصب الأول على الأخير استعان المغربي بالسحر السفلي ليمنع المصري من الاستفادة بالعمارة.

مرت السنوات وتحولت العمارة إلى أمر واقع لا يقوى أحد على مناهضته إلا سرًّا بكلمات نضالية عن الجهل الذي يطبق بأذهان جموع الجماهير، لكن كلماتهم كانت بلا أي تأثير، بل أنها كانت لعنة على أصحابها إذ تحولوا في نظر الجموع إلى أشخاص يتبجحوا على السحر والجن، وكلاهما ذكر في القرآن.

وفي يوم ما استيقظت المدينة على صفحة تم إنشاؤها على الفيس بوك، أنشأها شاب، يحرض الجموع على اقتحام عمارة الأشباح، كان عدد المشاركين في الصفحة يزداد بمرور الوقت، إلى أن حدد المشرفون على الصفحة ساعة الصفر وطالبوا الجماهير بالاحتشاد عند العمارة للقضاء على الأسطورة.

تجمع كثيرون هناك في الموعد المحدد وكلهم حماس لتحرير الجميع من الوهم بمن فيهم غير المهتمين، تسلل الشباب عبر سور فيلا ملاصقة للعمارة، ثم دخلوا إلى العمارة واحدًا تلو الآخر، كان بينهم من يحمل مصحفًا وبينهم من يرفع الصليب، دخلوا إلى العمارة، ثم غابوا قليلًا، ثم خرجوا من جديد إلى الشرفات فصفقت لهم الناس بهيستريا.

نجحت المهمة وصور الشباب من الداخل كليبات تكشف للناس كم هي هشة هذه العمارة، وكم هو زائف هذا الخوف المسيطر، كان هناك طول الوقت رجل كبير في السن ممتعض مما حدث ويحذر من باب الجحيم الذي انفتح على الجميع، أو يبدي خوفه من العواقب المحتملة خاصة وأن سكان المنطقة لم يشكوا من الوضع.

حدثت فوضى ما انزعج منها كثيرون، فتدخلت الشرطة تحت ترحيب كبار السن وتم إخراج الشباب، وإغلاق العمارة ولكن بصورة أكبر صرامة.

هنا شعر الشباب بالإحباط بعد أن فقدوا قصة تدعو للفخر عن الخوف الذي أزاحوه عن قلوب الناس، من

المؤكد أنك قادر على تخيل مدى حزنهم، وعلى تخيل مدى
رضا كبار الناس عن أنفسهم وشعورهم براحة الضمير.

لكن الأمر الذي لن تستطيع أن تتخيله هو تلك الفوضى
العارمة التي يعيشها الآن أشباح العمارة.

صلاة في الممر

مجدي شاب مسيحي .. يعمل (دهبنجي) كما يحب أن يسمي مهنته التي نسميها جميعًا (جواهرجي)، ثلاثيني، أب لطفلتين يعيش في المنيل، أهلاوي متعصب، مناضل من منازلهم، لكنه شارك في جمعة الغضب.

خاف مجدي في هذا اليوم وهو الشخص غير الخبير بأمور المظاهرات من أن يخرج من بيته منفردًا حتى لا يصبح هدفًا سهلًا لرجال الأمن المتحفزين، كان كل ما يعرفه مجدي أن المظاهرات ستنطلق من المساجد عقب صلاة الجمعة .. فلم يكن هناك بديل عن أن يختبئ وسط جموع الخارجين من أي مسجد حتى يكون في أمان قدر استطاعته.

مجدي له خبرة سيئة في ارتياد المساجد، منذ عامين توفي والد أحد أصدقائه الذين يعيشون على بعد عمارتين منه، تواجد مجدي في منزل المتوفى وانتظر حتى لحظة حمل النعش إلى أقرب مسجد للصلاة عليه، كان مجدي يشارك في حمل مقدمة النعش، وما أن دخل المسجد حتى استقبله أحد أبناء المنطقة المتشددين والذي يعرف أن مجدي قبطي .. احتد هذا الرجل على مجدي وطرده من المسجد، ودافع أقارب المتوفى عن مجدي؛ لأن أسلوب المتشدد كان فظًا، وكادوا أن يتشاجروا معه

لكن مجدي آثر السلامة.. انسحب سريعًا من المشـ
وقدم واجب العزاء في بيت المتوفى .. خاف حتى أ
يقدم واجب العزاء في دار المناسبات الملحقة بأكبر
مساجد المنيل.

يوم جمعة الغضب قرر مجدي أن يبحث عن مسجد بعيد عن المنيل، يعرف مجدي أن المنيل هي المنطقة الوحيدة في مصر التي يعرف أهلها بعضهم البعض جيدًا وكأنهم عائلة واحدة، خرج مجدي من المنيل باتجاه مستشفى القصر العيني، اقترب من أحد المساجد هناك سمع الخطيب يقول كلامًا يدعو لعدم الخروج في المظاهرات وعدم الخروج على الحاكم وعدم الاستجابة للدعوات المشبوهة التي لا يعرف أحد من وراءها.

على بعد خطوات وجد مسجدًا آخر، وكان كلام الخطيب مبشرًا إذ كان يتحدث عن الظالمين والفاسدين وأمور أخرى تلائم الهدف الذي خرج بسببه مجدي من منزله في هذا اليوم.

اقترب مجدي من مدخل المسجد الخلفي حيث يقف كثيرون في انتظار أن تقترب الخطبة من نهايتها فيخلعون أحذيتهم وينضمون لصفوف المصلين.

في لحظة قدرية تمامًا وجد مجدي عامل المسجد، وهو رجل في حدود الخمسين، يحمل حصيرة كبيرة مطوية تحت ذراعه ويمد طرفها ناحية مجدي طالبًا منه أن يساعده في فرشها (علشان الناس تصلي)، ارتبك مجدي لثوانٍ، لكنه استجاب لرغبة الرجل، وإمعانًا في إخلاصه للمهمة التي كلف بها خلع حذاءه حتى يستطيع أن يضم الحصيرة على الحصيرة التي تسبقها، في ثانية كان الرجل يدعو دعاء ما قبل إقامة الصلاة، وتوافد الواقفون على الحصيرة التي شارك مجدي في فرشها، وأحاطوا به من الأمام ومن الخلف وجلسوا فوجد نفسه الواقف الوحيد، فجلس هو أيضًا.

شعر مجدي بعد ثوانٍ أن ما يفعله ينطوي على خطأ ما إن لم يكن بحسابات مسيحيته، فعلى الأقل بحسابات المسلمين الذين قد تفسد صلاتهم بسببه وهو يقف ملاصقًا لهم في صف واحد.

استجمع مجدي شجاعته ووقف وركّز بحيث يخطف حذاءه في ثانية ويختفي، فعلها لكنه اصطدم بعامل المسجد، لم يقل له العامل شيئًا، لكن النظرة التي رآها في عينيه جعلته يقول له: "نسيت أتوضى".. أشار له

العامل باتجاه الممر الصغير المؤدي لدورات المياه، فتسلل مجدي إلى هناك.

بذات الصلاة .. يتذكر مجدي أنه قد تلا أثناء وقوفه في هذا الممر صلواته بسعادة نادرًا ما تتكرر، صلى حتى أصابته (حمقة)، فكتمها حتى لا تنسال دموعه في بداية يوم ستنهل فيه الدموع بلا حساب بفعل القنابل المتوقعة، لكنه لم يستطع أن يكتمها عندما انتهت الصلاة وانطلق أول هتاف من قلب المسجد (حسني مبارك .. بااااطل).

كان يومًا صعبًا على مجدي وهو شخص سمين بعض الشيء، وينهج إذا ما كانت سيارته على مطلع كوبري (على حد تعبيره) لكنه انتهى نهاية لم يكن يتوقعها وهو يرى الجنود تستكين وتغادر المشهد وهي مشتتة، بينما ميدان التحرير من بعيد يلوح ويختفي من بين دخان القنابل المسيلة للدموع.

بعد أن انطلق أول هتاف من داخل المسجد همّ مجدي بالخروج من الممر المؤدي لدورات المياه فوجد عامل المسجد يدخل وهو يحمل الحصيرة المطوية، لم يقل الرجل له شيئًا، لكن مجدي شعر بخجل حقيقي كمسلم ضبطه شخص ما (منزوع من الصلاة) .. يبحث عن

حجة جديدة، لكن قبل أن يفتح فمه قال له عامل المسجد: "معلش يا بني نسيت أقول لك إنهم قاطعين الميه من الصبح".

الخيمة

بعد أن أنهكه التجوال في المولد، وبعد أن فشل في الوصول إلى مقام السيدة زينب وجد نفسه يجلس على مقربة من إحدى خيام الخدمة التي تقدم الشاي والطعام لرواد المولد، كان الرجل الجالس أمام موقد البوتاجاز متوليًا مسئولية تقديم واجب الضيافة للرواد، يجلس وحيدًا مبتسمًا، التقت عيناهما فدعاه للدخول.

دخل وجلس صامتًا يشرب الشاي، قال له رجل الخدمة: "تعرف ابن عطاء الله قال أيه؟". هز الضيف رأسه نفيًا، فقال رجل الخدمة: "ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك". لم يفهم الضيف، فقال الرجل: "ربما أعطاك الصحة الوافرة فاستخدمتها في المعصية فمنعك عن طاعته، وربما جعل صحتك على القد فوقاك شر نفسك التي قد تحدثك بالانفلات".

قال الضيف: "فلتكن الصحة وليكن ستر الله إذا استخدمتها في المعصية". قال رجل الخدمة: "من يعرفون الله يا بني لا يطلبون منه أنه يسترهم في المعاصي، ولكنهم يطلبون منه أن يسترهم عن المعاصي".

قال الضيف: "لعلك رجل زاهد". فقال رجل الخدمة: "وهل تعرف ما الزهد؟". قال الضيف: "إذا منحني الله شكرت وإذا منع عني صبرت". قال له رجل الخدمة: "سأقول لك قول الأكابر: ما تقوله هو حال البهائم، الزهد يا بني أن يمنع عنك الله فتشكر، ويمنحك الله فتؤثر الآخرين على نفسك في هذه النعمة".

قال الضيف: "لعلك شيخ من الأولياء"، قال رجل الخدمة مندهشًا: "سيدي المرسي أبو العباس يقول: إن معرفة الشيخ أصعب من معرفة الله، فلا تتسرع أبدًا في تنصيب أحد شيخًا أو وليًا". قال الضيف: "ولكنك في حال من الصفاء، فماذا فعلت حتى وصلت إليه؟". قال رجل الخدمة: "لا أعرف". قال الضيف "لعل شكرك لله لا ينقطع"، قال رجل الخدمة: "يقول الجنيد: الشكر ألا تعصي الله بنعمه". قال الضيف: "ألا تشعر بالحزن أبدًا؟". قال رجل الخدمة: "أتبع قاعدة قديمة تقول: ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه".

قال الضيف: "أنت تعيش خارج العالم وتصبر نفسك بكلمات متقشفة، الدنيا مليئة بالمتع لكنك تخاف أن تقترب منها"، ابتسم رجل الخدمة قائلاً: أقول لك ما

به من هم في مثل حالي على هذا الاتهام .. والله نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف". قال الضيف وهو يشيح وجهه بعيدًا: "مجذوب"، أعاد رجل الخدمة ملء الكوب للضيف وهو يقول: "من ذاق عرف يا بني .. من ذاق عرف".

شوارع

على مدى أربع ساعات كنت أحاول الخروج من شارع القصر العيني.

عند منفذ الخروج من ناحية كورنيش النيل كان يقف رجل مسن أغلب الظن أنه سايس أحد الجراجات يحاول قدر استطاعته أن يمنع الناس من الوصول للكورنيش، كانتا يداه ترتعشان عندما استند إلى شباك السيارة قائلًا: "فيه ضرب"، لكنني كنت مصرًا على المرور، وعند مدخل الفندق الشهير كانت الطلقات عاصفة بشكل يجبر كل من يظن في نفسه الجرأة على الانحناء داخل سيارته والارتداد للخلف، كان صوت اختراق الطلقات للهواء بالقرب من قوقعة الأذن مربكًا أكثر من صوت الطلقات نفسها (ارجع .. ارجع) قالها المجند بلكنة صعيدية.. في محاولة للعودة إلى المنزل وجدت نفسي أمام قسم قصر النيل.

أمام القسم كان الضباط والجنود قد وضعوا حواجز ضعيفة هي في الأصل حواجز بــاركنج السفارة الملاصقة، وخلف أحدها تراصوا ممسكين بالأسلحة الآلية وفي وضع الاستعداد، توقعت طلقة وأنا أقترب منهم بعد أن تورطت في مسار الشارع الإجباري،

لكنهم من هول الموقف لم يروني، كان باديًا على وجوههم أنهم في انتظار مشهد محدد، ينتظرون مشهد مئات اللحى تحمل الرشاشات وتدخل باتجاههم مهرولة. كانوا في انتظار الموت لدرجة أنهم لم يهتموا بشخص من نوعيتي دخل الشارع بطريق الخطأ، رأيت في عيونهم نظرات مغادر يسترجع أمورًا ما من حياته الشخصية في لحظة وداع لها.

بعد أن أسقطت معظم هذه الحواجز وأنا أعود بسيارتي إلى الخلف توقعت أن أرى أحدهم يعيدها إلى مكانها، لكن أحدًا لم يتحرك.

مررت من شارع آخر فوجدت نفسي عند مستشفى القصر العيني، زحام شديد من الأهالي والممرضات والأطباء يهرعون في الشارع حاملين الأدوية أو المصابين، سألت شبابًا يقفون هناك عن الوضع، فقالوا: "الجيش بيفرمنا"، دققت في المشهد من حولي فوجدت المنطقة كلها شباب ورجال ونساء الإخوان بعضهم يقف منتحبًا والبعض يجلس على الرصيف مهزومًا، أنا الآن في قلب المسيرة التي انفضت، تعرف عليّ أحدهم فسألني: "إيه اللي بيحصل ده؟".. سألته: "إنتم

بيحصل من مين فينا؟". فأشاح بوجهه بعيدًا، طلبت منه أن يأخذ من معه وينصرف حفاظًا على أرواحهم، فقال لي إنه إذا لم يمُت هنا بالرصاص الميري فسيموت على بُعد خطوات بسلاح الأهالي.

هو أيضًا كان ينتظر الموت.

وقد كان محقًا، أسفل منزلي عندما قررت العودة لاستحالة المرور كان أهل الشارع يلملمون كل شيء.. كراسي المقهى وثلاجات الأكشاك ويقفون بعرض الشارع مترقبين قدوم الإخوان المتمركزين عند المستشفى، هم أيضًا كانوا في رعب، أعادوا على بعضهم مشاهد الملثمين الذين يطلقون النار على الأهالي، كانوا في حيرة، البعض قال: نتركهم يمروا ما لم يتعرضوا لنا بأذى، بينما أقسم الآخرون أنهم غدارون وسيفرغون رصاصتهم فينا، قالها ثم أخرج المفروطة فخرجت بقية قطع الأسلحة، كان الانتظار يطول فيزيد القلق وترتفع الحواجز، تكونت لجنة شعبية بعضها يقترح حلولاً سلمية من باب التفتيش والسماح لهم بالعودة إلى بيوتهم وبعضهم يقترح أن يكون ضرب النار في السيقان، وكان من يقترح ضرب النار أكثر الموجودين ذعرًا.

كان تجمع مستشفى القصر العيني ينفرط، لمحت أشخاصًا منهم يقتربون من اللجنة بشكل فردي في طريق البحث عن محطة المترو أو تاكسي، لم يتعرض لهم أحد، كان معظمهم رجالاً كبار السن، كان شباب اللجنة يراقبونهم حتى يبتعدوا تمامًا.

مرت ساعات الترقب بصعوبة إلى أن خفت الذعر في المنطقة قليلاً، في النهاية خرجت من هناك باتجاه الشيخ زايد، أرغمتني الطرق المقطوعة من قبل الجيش أو الإخوان أو اللجان الشعبية على الدخول في شوارع لم أمر بها من قبل، ولم تكن هذه الشوارع تفضي إلى شيء.

ملاعب العازب

الزوجة في عملها والطفلة عند الجدة..

من هنا بدأت القصة..

ما إن أغلقت الزوجة الباب خلفها حتى دب الأدرينالين في كل أركان الجسد ونادتني المحرمات العائلية من كل أركان الشقة، البداية من الحمام حيث يطول الوقوف تحت الدش الساخن لفترة تجعل البخار لا يغطي فقط مرآة الحمام بل يغطي زجاج ترابيزة الصالون، متعة لا يشوش عليها الاضطرار إلى تنشيف أرضية الحمام، يعقبها البحث في الدولاب عن ملابس مبهجة تليق بمستجم في أحد وديان سيناء.

ثم توصيل اللاب توب بالسماعات الكبيرة لاعبًا بلاي ليست من أحقر الأغاني التي لا تشبه أبدًا السجادة الشيبواه التي تقدسها الزوجة، وعلى أنغام أغنية "البطاطا بتسخن .. حلوة وبتسخن" بدأت في ممارسة الرياضة العشوائية القائمة على القفز في المكان كفرس نهر منتشٍ، ثم تسللت إلى المطبخ لعمل القهوة.

تحرص الزوجة دائمًا على أن تعد لي القهوة بنفسها، بعض من هذا الحرص ينبع من المحبة بلا شك

لكن البعض الأكبر ينبع من مشاكل قديمة عندي في الإدراك تجعل القهوة تفور مني عند إعدادها بشكل يجعل البوتاجاز يتسخ في كل مرة يناديني فيها الكافيين، نظافة سطح البوتاجاز أمر يتماس مع كرامة كل زوجة، ولكي تتخيل المأساة كرجل افترض أنك تمتلك جهاز لاب توب ولديك طفل رضيع كل نصف ساعة (يجي يقشط لك) على الكيبورد، في غياب الزوجة فوران القهوة مرة مثل عشر مرات انتظرت حتى ارتويت تمامًا من الكافيين، ثم سحبت عشوائيًا قطعة ملابس من باسكت الغسيل وقمت بـ (تلبيط) سطح البوتاجاز.. يبدو الآن أكثر نظافة، ولكن انتهى عمر قطعة الغسيل وكان مثواها القمامة.

فنجان القهوة لا يحلو بدون سيجارة طبعًا، وكلاهما لايحلو بدون التنقل بين قنوات التليفزيون، المهم ألا تنسكب قطرات على السجادة، وهذا أمر سهل، الصعب أن يستعيد الواحد قدرته القديمة على النشان بحيث يقع رماد السيجارة بالضبط داخل الطفاية، ولكن إذا كان الواحد لايقوى على رفع الكنكة التي يمسكها بيده عندما تقترب القهوة من فوهتها فما بالك بالطفاية التي تبعد ما لا يقل عن عشرة سنتيمترات؟ أضف لذلك أن تسرح مع

ما بينه التليفزيون (إحم.. بالمناسبة موضوع إنك شغلت التليفزيون لا يعني أبدًا أنك طفيت حفلة المزيكا اللي شغلتها من كام سطر)، الرجل العازب خارق للعادة، يشغل المزيكا والتليفزيون في نفس الوقت ويتركهما، ويصطحب الموبايل ليدخل الحمام يسلي نفسه بالتقليب في تويتر بلا أي شعور بالمسئولية لدرجة أن جرس الباب لا يحرك ضميره مطلقًا باب الشقة أصلا لا وجود له حتى موعد وصول الزوجة، غير ذلك هو مجرد فاصل خشبي بين العالم الخارجي وعالم ديزني الذي يعيشه في هذه اللحظة.

الشخص المتزوج، يعيش لحظات ساحرة، كتنين هائج يبث دخانه الممنوع في كل مكان، يبدأ من البلكونة كالعادة، ثم يتجول في الشقة، يطفي مرة في حوض الحمام، مرة في حوض المطبخ، مرة في كوب الشاي الفارغ، لا مانع من أن يقف على حدود غرفة النوم، يفتح النور، ثم يأخذ نفسًا ويخرجه في الغرفة، ثم يغلق النور، ويخرج وفي النهاية يستقر من جديد أمام التليفزيون الذي أصبح ملكه تمامًا يستطيع أن يشاهد ما يحلو له كاملاً بدون تنغيص، وهذا هو ما فعلته بالضبط

توقفت عند قناة (الأهلي)؛ لأنها الوحيدة التي تبث مباريات في هذا الوقت وإن كانت قديمة، تذكرني الماتش بصديقي الذي قاسمني مشاهدته فهاتفته.

أتحرك الآن في سنترال حيث الأصوات كلها متداخلة، لحظة يحلو فيها البحث تحت كرسي الصالون عن كرة الطفلة، أنقلها من قدم لقدم أثناء التحرك بالموبايل متحدثًا إلى صديقي.. إلى أن وصلت إلى أعرض حائط في الشقة فبدأت في الشوط المتدرج.. في البداية بهدوء لأضمن أن الكرة ستخبط في الحائط وترتد إلى قدمي بالضبط

آلمتني أصابع قدمي خاصة بعد أن طار الكروكس من ثاني شوطة فارتديت الفوتبول دون أن أعقد رباطه، ثم أفرطت في الثقة في موهبتي فبدأت مرحلة الشوط الأهطل الذي ينتهي أحيانًا بمأساة.

أنهيت المكالمة أمام مرآة الحمام تأملتني، ففكرت أن أحلق ذقني، في منتصف الحلاقة توقفت عند الشارب الذي لم أقترب منه بعد فقررت أن أتركه بطفولة تامة لدقائق بعد حلاقة تجعله نسخة من شنب اللعبي.

أروح وأرجع أمام المرآة كل دقيقتين، أتأمل المنظر وأضحك وأوجل حلاقته لأعود طبيعيًا بعد أن (أكل لقمة)، فكل المجهود السابق يفتح الشهية، وسواء اكتفيت بعلبة تونة وبصلة أو قلي بيضتين فستترك في المطبخ الآثار نفسها التي تركها التتار عند دخول بغداد، وستترك على السجادة ما يدل على أن هناك قطًا مر من هنا وفي فمه رغيف ناشف، هذا ما فعلته بالضبط.

عند أمام التليفزيون أحبس اللقمة بالشاي والدخان متأملاً المتش والنعيم الذي أحياه سائلاً نفسي: هل أخبئ هذه الحياة السرية خوفًا من زوجتي أم رحمة بها؟

سرقني الوقت، ثم رن جرس الباب، تجاهلته أول مرة ولم ألق بالاً في الثانية الثالثة كانت رنة متوترة، تذكرت أن الزوجة تحاول أن تفتح بمفتاحها لكنني (مترس الباب)، أجري لأفتح لها.

هي الآن أمام شخص يشبه اللمبي الإجرامي يرتدي تي شيرت مكتوب عليها (I love sharm) وبنطلونًا قصيرًا مشمشي اللون في كل بقعة فيه شمس مبتسمة ترتدي نظارة شمسية، وفوتبول بدون شراب أربطته مفكوك، والبيت كله يهتز بفعل إيقاع الأغاني

الرخيصة (دوم تك تتك تتك تتك) بينما دخان كثيف يهل من صالة الشقة باتجاه الباب وصوت المعلق الرياضي قادم من قناة (الأهلي) يصف المشهد بالضبط (بيبو وبشير بيبو وبشير .. بيبو والجون).

سعد

كان سعد زميلنا في معظم مراحل الدراسة، وكان ملونا، أما والدته فقد كانت على علاقة طيبة بمعظم أمهات أبناء شلتنا، كانت لعبتنا المفضلة في الطفولة والمراهقة دائمًا أن نستفز سعدًا ونغني له جملة واحدة فقط من الغنوة: "سعد نبيهة .. سعد نبيهة"، أما لماذا كنا نستفز سعدًا؟! فلأنه كان غريبًا.

في إحدى المرات دخلت مدرسة التربية الوطنية وسألت الفصل: "ما هي اللغة التي كان يتحدث بها المصريون قبل دخول اللغة العربية؟". صمتنا جميعًا لكن سعد رفع يده طالبًا الإجابة قائلاً: "اللغة الإنجليزية يا أبله"، وقعنا جميعًا في الأرض من شدة الضحك خاصة عندما قالت له المدرسة: "وحياة أمك؟!!".

وفي رحلة تعارف بين مدارس الصعيد إلى أسوان أقمنا معرضًا صغيرًا يعبر عن المحافظة وعند زيارة محافظ أسوان للمعسكر مر به وسأل سعدًا: "تعرف إيه أصل كلمة سوهاج؟". سعد لا يتردد أبدًا في تقديم إجابة يراها مقنعة من وجهة نظره .. فقال للمحافظ: "الكلمة من جزئين "سو" وهي تعني جدًا بالإنجليزية .. وكلمة "هاج" ثم صمت سعد ليكمل قائلاً: "يعني معناها .. هاج جدًا" نظر إليه المحافظ

مداهمتنا، فقال سعد: "لابد أن السوهاجوية معروف عنهم أنهم دمهم حامي من أيام الفراعنة"

كان سعد عبقريًا في استخدام مواد الطبيعة المتاحة حوله، كان يحضر لنا أسماكنا ويخيط جمول على قطع مستوية من الخشب، شجر الجوافة ليظل الواحد منا طول الليل يداعبها ويشم رائحة الجوافة المحببة للقلب. وفي أسوان وجد لدى مدير المعسكر بعضًا من الطمي الأسواني وظل طول الليل يصنع منه تماثيل صغيرة لجمال عبد الناصر الذي كان يعشقه، وفي الصباح اقترح أحد زملائنا أن يبيعها لأبناء وفود المحافظات الأخرى حتى يوفر مبلغًا يساعده على العودة من أسوان بهدايا لوالديه. نجحت الفكرة وجمع جنيهات ليست قليلة أنفقها في دعوتنا لأكلة كفتة مشوية بعيدًا عن أكل المعسكر المقرف.

في إجازات الصيف كنا لا نمتلك سوى ملعب كرة قدم وحيد، في إحدى السنوات توجهنا إليه بعد انتهاء الدراسة فوجدناه مغطى بالحشائش والأشواك العشوائية بطريقة لا يصلح معها اللعب، ظللنا لعدة أيام نتوجه إلى الملعب لتنظيفه لكن المهمة كانت أكبر من إمكانياتنا

في إحدى الليالي بينما نقف تحت البيت قال لنا سعد: إن عندي فكرة، في صباح اليوم التالي توجهنا إلى الملعب ودخلنا فوجدناه مليئًا بعشرات الخرفان والماعز تتسلى بأكل الأشواك والحشائش وبعض الرعاة أصحاب القطعان، وسعد يجلس معهم يحاورهم، وبعد ثلاثة أيام من فكرة سعد العبقرية كان الملعب مهيئًا تمامًا .. بالمناسبة لم يكن سعد محبًا لكرة للعبة كرة القدم.

كان شخصًا نمطًا وشديد الحياء، كان رد فعله على هتاف "سعد نبيهه" يليق بشخص محب لأهله: "بس يا جدعان لأمي تسمعكوا تزعل"، كان يخاف على زعلها ويبتسم للهتاف في الوقت نفسه.

توفي سعد في حادث موتوسيكل عندما كان عائدًا من مستودع الأنابيب بالنبوية في أول أيام رمضان منذ عدة سنوات.

ناصر

رن الجرس.

وقبل أن أفتح الباب للآخر دخل جمال عبد الناصر وكأنه غرق يلتقط أنفاسه بصعوبة.

- اقفل الباب.

- فيه إيه يا ريس؟!

أغلقت الباب وقبل أن يجلس على كنبة الليفينج قال:

- عبد الحكيم بيجري ورايا.

- وهو المشير بيجري وراك ليه يا ريس؟!

التفت ناصر فرأى الطعام.

- إيه ده أنت هتتعشى؟

- مش عشا قوي.. يعني جبنة وطماطم وخيار وزبادي وعيش..

قبل أن أنهي اللقمة كان قد شق طريقه في قلب مكعب جبنة

- عندك شاي؟

- عندي يا ريس ونعناع بلدي كمان هاعملك خمسينة.. سكرك أيه؟

- ما أنت عارف.. من غير سكر خالص.

- ماشي.

- ولا أقولك: اعمل لي قهوة وحط لي معلقه سكر، أنا معايا الدوا يابني .. ثانية كده ..

وضع يده في جيبه فأخرج أربعة شرائط أدوية مختلفة أخذ يتفحصها..

- ده بتاع الذبحة، وده بتاع الضغط، وده بتاع الشرايين، وده ... تمام حط لي معلقة لقيته.

بينما أقف في المطبخ كنت أحاول استجوابه من بعيد.

- ما قلتليش المشير بيجري وراك ليه يا ريس؟

- أصلي ضربته على قفاه قدام العساكر بتوعه.

- طب ده كلام؟

- أصله غاظني.. بقوله إحنا اتهرسنا في اليمن بسببك.. راح قايل لي: أنت اللي عايز تعمل زعيم على

قفانا.. روحت استنيته وهو واقف مع العساكر ورحت ضربه على قفاه وخدت ديلي في سناني جري.. ما كنتش عارف أروح فين لحد ما لقتني بالصدفة داخل ع القصر العيني قلت: أستخبى عندك.

رن جرس الباب مرة أخرى .. كان صوت الجرس مختلطًا بطرق عنيف على خشب الباب.

سمعت (ناصر) يقف في مكانه.

- انت مستني حد؟

- لا يا ريس .. اقعد أشوف مين.

قبل أن أفتح الباب لنهايته وجدت عبد الحكيم عامر يدفعه بركبته ويدخل وهو ينهج وقد ابتلت ملابسه تمامًا بالعرق .. قال لي وهو يلتقط أنفاسه

- ناصر عندك، صح؟

- طب قول: سلامو عليكو الاول!

- مراتك هنا؟

- لأ.

- طب، عن إذنك!

دفعني عبد الحكيم عامر ليدخل وأعجبني أنه استأذن قبل أن يدخل حرم البيت مندفعًا، جعلتني هذه الحركة أتعاطف معه الحقيقة، ما جتش من ناصر، عامر صعيدي ويعرف الأصول، ناصر صعيدي أيضًا لكن لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

دخل حكيم فوجد ناصرًا واقفًا بحذائه فوق كنبة الليفنج يحمل حبات الطماطم ويهدد عامرًا بأنه هيرميها عليه.

- عامر، أنا كنت بهزر!

- بتهزر أيه يا (...) قدام العساكر؟ أنت فاكرنا قاعدين في مدينة الطلبة دي وحدة جيش!

- ما أنت أحرجتني قدامهم يا معلم وقلت لي: عايز تعمل زعيم!

- مش أنت اللي عايز تلبسني ليلة اليمن؟ أيه هو أنا هافضل أشيل (...) كده كتير؟!

كان لا بُدّ من التدخل..

- صلوا ع النبي يا جماعة، الساعة واحدة بالليل والجيران نايمين!

التفت عامر ناحيتي وكان صادقًا..

- بس يا (...) أنت التاني!

بينما عامر يوجه كلامه لي أخرج ناصر من جيب جاكيت البدلة صناعة غزل المحلة صاروخ من بتوع أطفال العيد، ثم أشعله وألقاه في قفا عامر فانفجر .. جن جنون عامر، بينما ناصر مستلقى على الحائط يكاد يموت من الضحك..

هجم عامر عليه وطرحه فوق الكنبة وصعد فوقه، انهال عامر قرصًا في لغاليغ ناصر بعنف شديد بينما ناصر يترجاه..

- عامر عامر .. أنا عندي جلطة .. عندي جلطة يا اله يخرب بيتك!!

- جلطة إيه؟ هتستهبل ده أنت جاي جري من منشية البكري؟!

عاد الطرق من جديد على الباب، فتحت هذه المرة فوجدت جيراني قد تجمعوا بسبب ضوضاء ما بعد منتصف الليل.

أخذت أنقل النظر بينهم وبين عامر وناصر وهما مشتبكان، عامر منفعل ومستمر في التقريص، بينما ناصر غارق في خليط من الوجع والضحك بطريقة مزعجة.

استيقظت على زنة سخيفة في أذني بسبب نزلة البرد وبسبب الصاروخ الذي فرقعه ناصر في الحلم، وكان تحت رأسي كتاب (مذكرات طبيب عبد الناصر) مفتوحًا على الصفحة التي يروي فيها حالة ناصر الصحية بعد انتحار المشير، كان ناصر يقول إنه يرى عامرًا بعد رحيله في كل شيء حوله حتى في فنجان القهوة.